

المقدمة موضوع « السرقات الأدبية » من أهم الموضوعات التي أولاها نقاد الأدب كثيراً من عنايتهم ، وأمل هذا الموضوع كان من أبرز الموضوعات التي الجها النقد العربي . إذ كان من أهم الأهداف النقدية الوقوف على مدى أصالة الأعمال الأدبية المنسوبة إلى أصحابها إذ كان من أهم الأهداف النقدية الوقوف على مدى أصالة الأعمال الأدبية المنسوبة إلى أصحابها أو مبلغ ما يدين به أصحابها السابقهم من المبرزين من الأدباء من التقليد أو الابتاع وكانت تلك النظرات توقف على ما امتاز به أديب من أديب ، وتدل على مدى العبقرية التي تميز بها جماعة منهم . كان النقاد بلجئون في أكثر تقدّمهم إلى الموازنة بين أديب وأديب ، وكان من أهم ما يعنون به في هذا المجال الفحص عن نواحي الاتفاق بين أديبين ثم ما ينفرد به أحدهما عن غيره ، تدل في أكثرها على الذوق السليم ، لخصاً بخدمة تلخيص النصوص العربية أونلاين ، قم بتلخيص نصوصك بضغطة واحدة من خلال هذه الخدمة نتيجة التلخيص (98%) وإلى ذلك يحتاج الحكم بالسرقة أو الابتكار إلى سعة معرفة بالأدب وفنونه ، وإطلاع واسع على التراث الأدبي في سائر عصوره ومواطنه ، وحفظ طاقة كبيرة للمشهورين والمغمورين من الأدباء ، حتى يسهل ربط المتقدم بالمتأخر ، ويعرف السابق من اللاحق ، ويمكن حينئذ الحكم بالتقليد ومن ناحية أخرى فإن هذه الدراسة في حقيقة أمرها ، وما تقتضيه طبيعتها دراسة تطبيقية عملية ، أكثر منها دراسة نظرية تخضع للأصول الموضوعية والقواعد المرسومة ، التي تقوم في أكثرها على المنطق والاستدلال ، وتخضع لقوانين التحديد والتقسيم . وهذا الاتجاه يجعل للبحث في السرقات الأدبية قيمة كبيرة ، لأن الدراسة العملية والتطبيقية في مسائل النقد الأدبي دراسة بجدية ؛ إذ أنها دراسة موضوعية تستعمل في الأحكام من تلك الموازنات الدقيقة بين الأعمال الأدبية ، واستخلاص ما حوت من فنون الجمال ، وما يكون فيها من الابتكار أو الاحتذاء . وبين أيدينا بعض الآثار التي تفيض بهذه الدراسات العملية ، التي أراد أصحابها أن يؤيدوا بها أحكامهم بالحجة القاطعة ، ويضعوا بين يدي الدارس الأسباب الظاهرة للأحكام التي يبدونها في المفاضلة بين أديبين أو شاعرين . وهذا الأسلوب هو الذي جعل لآرائهم كثيراً من التقدير والاعتبار . وفي مثل هذا المنهج يختفى إلى حد كبير الأثر الذاتي في الأحكام الأدبية ، ذلك الأثر الذي يغض في كثير من الأحيان من قيمة تلك الأحكام ، إذا لم تكن مبنية على أساس من الموضوعية يقنع الدارس بصدق ما ذهب إليه الناقد ، وسلوكه الطريق الطبيعي في إصدار الأحكام . مع هذه الدراسة الموضوعية التي أشرنا إلى - نأ إلى عظم جدواها في النقد وجدارتها بالاعتبار بجد جماعة من المؤلفين عمدوا إلى جمع جملة من تلك الأحكام ، وتنظيمها " ووضع حدودها وأقسامها ، وجمع الأمثلة والشواهد لكل منها ، تمر على الإحصاء والاستقصاء . به وجاء علماء البلاغة بعد ذلك ، فوجدوا موضوع « السرقات » من أنفس الموضوعات التي تعالج الأدب ، بل رأوه خير ماعالج النقاد ، وهم حريصون على تلك الجهود أن تتبدد ، ولم يجدوا مبحثاً من مباحث البلاغة الاصطلاحية يصلح أن يضم شتات هذا البحث النافع ؛ وجملاء خامة لمباحث الفن الثالث (فن البديع) ، وذيلوا كتبهم بهذا الموضوع (السرقات الشعرية) على الرغم من اعترافهم أن معنى السرقات لا يرجع ما يشترك فيه الفنون الثلاثة أو ينفع فيها ، حتى يكون البحث في (السرقات) خاتمة لمجموع ما في كتبهم من مباحث البلاغة . فإن دراسة البلاعيين لموضوع السرقات كانت دراسة تقليدية ، كشأنهم في سائر الموضوعات التي عالجوها علاجاً قاعدياً أبعداً عن تحكيم الذوق واستشارة العقل والقلب ، كما كان هذا هو المنهج عند السابقين . والسبب في ذلك أن أكثر البلاغيين من طبقة صاحب الفتاح ، ومن بعده قل حظهم من الملكة البيانية الأصيلة ، وغلبت عليهم روح الجدال والمنطق - وأدى هذا إلى أن يتعرضوا بأسلوبهم التقريري العلاج المسائل الحالية في الفن الأدبي ، وهم لم يعدوا أنفسهم إعداداً أدبياً بشحن ذهنهم ويستثير العواطف الإنسانية ، التي يتحرى الأدب والأدباء إثارتها ، وإن كان إعداداً جديلاً يبعد عن أهداف الأدب ومراميه . وكثير منهم - كما يرى القاضي الجرجاني (١) - لا يعرف من الشرق إلا اسمه فإن تجاوزته حمل على ظاهره ، ووقف عند أوائله ، وجد عارياً من معرفة واضحه ، قبل الوصول إلى مشكله . وهذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعالم المبرز وليس كل من تعرض له أدركه ، استوفاه واستكملته - لها - وإذا كان البحث في (السرقات) بحثاً في صميم الأدب ، ودراسة لاخترعه القديم وما أخذه عنه المحدث ، فإن هذا البحث ينبغي أن يقوم على أساس من التاريخ ، وأن ينهض على التتبع التاريخي لكل جزئية من جزئيات الفن الأدبي وإذا كنا نقول إن الأدب فن يرمى إلى تحقيق غرضه بوساطة العبارة ، فإن علينا أن ترجع إلى التاريخ ، وعن كل عنصر من عناصر الجمال المكونة لهذا الفن • رين الذي ابتدعه متى وجدت تلك الظاهرة ؟ ومتى استحدث هذا العنصر ؟ من أولئك الأدباء الذين لا يحصى عددهم إلا الله ؟ وبعد الإجابة على تلك الأسئلة يكون من حق النقاد أن يسألوا عن الذين تداولوا هذا العمل فيها بعد ، ومن الذين اقتدوا بأصحابها فيها ابتدعوا منه • وتلك أمور مستقاهما التاريخ ، وبغير المعرفة التاريخية التي تقوم على التحديد (١) الوساطة بين المثني وخصومه لا يتسنى تحقيق الغاية كاملة من دراسة السرقات دراسة مجدية . ولا تاريخ بغير مؤرخ ! ونحن في هذا المجال لانقصد مؤرخاً أياً كان ؛ بل إن المؤرخ الذي نعينه

مؤرخ بعيد المثال ، ولا يمكن أن يكون موجوداً على الوجه الذي تريد إلا في عصور مزدهرة بالحضارة ، وبين عقول زاخرة بالمعرفة ، امتازت ق البحث ، ونفرت من السطحية التي تنخدع بالمظاهر ، ولا تستطيع الغوص على العلل والأسرار . وكل ذلك بعيد غير مستطاع . والسبب في أسعد حصوله واليأس من تحقيقه ، أن ظواهر الخلق والابتداع كانت في عصور لا توصف في أكثر الأحيان بأنها من عصور النور والمعرفة ، ومثل تلك المصور يندر فيها وجود من تتطلع إليه تلك الدراسات من الباحثين احقطين . ثم إن أكثر تلك النواحي الإبداعية كانت فردية ، أي أن الذين خلقوها وأبدعوا كانوا أفراداً ، وأولئك الأفراد لم تكن لهم تلك القدرة على الإبداع بحكم تركيب الخلقة أو ترتيب البيئة أو الزمان أو المكان ، حتى نستطيع أن نقول على وجه التحقيق إن هذا المعنى مثلاً كان مستلزماً تلك البيئة ، أو مقتضيات ذلك الزمان ، فقد وجد القوة الخالقة والعبقرية المبتدعة ، على حين يوجد القادر على رصد إشمارات تلك القدرة ، أو تسجيل ما أبدعته من آثار • وقد توجد العقلية القادرة على رصد الظواهر وتتبعها في بيئة أو زمان لا عبقورية فيه ولا خلق ولا إبداع! وعلى هذا فإن اقتران الخلق بالدرس شيء في حكم الندرة ، إذا لم يكن في حكم المستحيل . وأن يكتب لها شيء من الذبوع والانتشار ، يتيح فرصة التعرف عليها وتبين ملامحها ، وأن يكون في تلك الظاهرة ذلك من الصفات ما يجعلها جديرة بالبحث والدرس ، وإذ ذاك يكون وجود الدارس شيئاً طبيعياً ، لا تعمل فيه ولا كد ولا مجاهدة . وفي سبيل الوصول إلى تلك الحلقات المتتابعة ، من جهود العباقرة تلك العقبات المضنية التي أشرنا إلى شيء منها . الأساس كما قدمنا ينبغي أن يكون أساساً تاريخياً ، ولا شك أنه كان على هذه الدرجة من العسر ، أو على درجة قريبة منها على الذين سبقوا إلى البحث في السرقة أو التقليد أو الاتباع . ولا يمكن أن تكون سرقة ، ولا يمكن أن ندعى أن هنالك تقليداً أو اتباعاً ، إلا إذا كان بين أيدينا على يميني بالمقدم أو الأصل ، حتى يعرف المتبوع من التابع ، والأصل من الفرع معرفة يقينية ، وعندئذ نستطيع أن نضع أيدينا على السرقة ، وحكم حكماً جازماً يوقعها غير شاكين ولا مترددين . ولكن هذا الحكم الجازم غير مستطاع ، مع الاعتراف بضرورة هذا البحث ، وعظم حدواء في الدراسات الأدبية والنقد الأسمى وهذا الاعتراف يقتضينا شيئاً من التسامح ؛ إذ كان البحث في السرقات موضوعاً يتصل بالنقد الأدبي ، وهدف النقد التمييز بين القسم الأدبية الصحيح وفي هذا التمييز لا يمكن أن ندعي أن الأحكام التي تدلى بها أحكام لازمة أو ملزمة ، ولا يمكن أن ندعى شيوع الحكم أو التسليم به تسلمها مطلقاً ملزماً لجميع العقول كما هو الشأن في العلوم التجريبية والعلوم الرياضية . ولذلك كان كل كلام في السرقات كلاماً مبعثه الاجتهاد ، في الحدود التي تمكن صاحبها من الاجتهاد ، وكان مبنياً أيضاً على الاطلاع الذي قد يكون واسع المدى ، وهذا الاطلاع في سعته وفي تحديده ، لا يمكن أن يوصف بالإحاطة المستوعبة ، لأن كثيراً من هذا الأدب أصابه الضياع لأسباب كثيرة ، إذا كنا قد فقدنا جانباً من الأسس المعتمدة في هذا المجال في تناول الجزئيات ؛ فإن أماننا من ناحية أخرى ثروة في الكليات ، وتكونت لدينا مجموعة من المعارف والآراء ، نستطيع بها أن ندون معالم هذه الدراسة المتشعبة ، وأن ننظمها من أهم النواحي التي ينظر إليها المحدثون في الدراسات الأدبية والنقد الأدبي . وقد كان في طول العكوف على دراسة النقد الأدبي ، وتتبع اتجاهاته ومناهجه المختلفة من عقل إلى عقل ، ومن عصر إلى عصر ، ما أعان على هذه الدراسة التي بحثت فيها عن مواطن الابتكار ومحالات التقليد ، متجهاً إلى التعليل النفسي والتأثير الاجتماعي في درس ظاهرة (السرقات) ليكون من ذلك سند لدراساتها أدبية ونقدية ، ومحاولاً أن أطوف بفنون الأدب العربي البارزة فيما يتصل بموضوع السرقات . وأرجو أن يجد القارئ في هذه الدراسة الفنية والنقدية ما كان يتطلع إليه من في هذا الموضوع الذي نال من قدامي الباحثين من الجد والعناية ما لم يثل بعضه من عناية المعاصرين . والأمل بعد ذلك أن يعين الله على دراسة هذا الموضوع دراسة أخرى من الناحية التاريخية ، توقف على تطور الفكرة ، وتفصل جهود النقاد التي ألمنا بطرف منها في هذا البحث ، النص الأصلي أو نظرة سطحية . وإلى ذلك يحتاج الحكم بالسرقة أو الابتكار إلى سعة معرفة بالأدب وفنونه ، وإطلاع واسع على التراث الأدبي في سائر عصوره ومواطنه ، وحفظ طاقة كبيرة للمشهورين والمغمورين من الأدباء ، حتى يسهل ربط المتقدم بالمتأخر ، ويعرف السابق من اللاحق ، ويمكن حينئذ الحكم بالتقليد ومن ناحية أخرى فإن هذه الدراسة في حقيقة أمرها ، وما تقتضيه طبيعتها دراسة تطبيقية عملية ، أكثر منها دراسة نظرية تخضع للأصول الموضوعية والقواعد المرسومة ، التي تقوم في أكثرها على المنطق والاستدلال ، وتخضع لقوانين التحديد والتقسيم . وهذا الاتجاه يجعل للبحث في السرقات الأدبية قيمة كبيرة ، لأن الدراسة العملية أو التطبيقية في مسائل النقد الأدبي دراسة بجدية ؛ إذ أنها دراسة موضوعية تستعمل فيها الأحكام من تلك الموازنات الدقيقة بين الأعمال الأدبية ، واستخلاص ما حوت من فنون الجمال ، وما يكون فيها من الابتكار أو الاحتذاء . وبين أيدينا بعض الآثار التي تفيض بهذه الدراسات العملية ، التي أراد أصحابها أن يؤيدوا بها أحكامهم بالحجة القاطعة ، ويضعوا بين يدي الدارس الأسباب الظاهرة للأحكام التي يبدونها في المفاضلة بين أدبيين أو شاعرين . وهذا

الأسلوب هو الذي جعل لآرائهم كثيراً من التقدير والاعتبار . وفي مثل هذا المنهج يختفى إلى حد كبير الأثر الذاتي في الأحكام الأدبية ، ذلك الأثر الذي يغض في كثير من الأحيان من قيمة تلك الأحكام ، إذا لم تكن مبنية على أساس من الموضوعية يقنع الدارس بصدق ماذهب إليه الناقد ، وسلوكه الطريق الطبيعي في إصدار الأحكام . مع هذه الأذه الدراسة الموضوعية التي أشرنا إلى - نا إلى عظم جدواها في النقد وجدارتها بالاعتبار بجد جماعة من المؤلفين عمدوا إلى جمع جملة من تلك الأحكام ، سرقات أسماء كثيرة ، ومصطلحات مختلفة ، تمر على الإحصاء والاستقصاء . فوجدوا موضوع « السرقات » من أنفس الموضوعات التي تعالج الأدب ، وتنقده نقداً موضوعياً . بل رأوه خير ماعالج النقاد ، ولم يجدوا مبحثاً من مباحث البلاغة الاصطلاحية يصلح أن يضم شتات هذا البحث النافع ؛ فألحقوه بعلومها الثلاثة ، وجملوه خامه لمباحث الفن الثالث (فن البديع) ، حتى يكون البحث في (السرقات) خاتمة لمجموع ما في كتبهم من مباحث البلاغة . وأياً ما كان الأمر ، فإن دراسة البلاعيين لموضوع السرقات كانت دراسة تقليدية ، كشأنهم في سائر الموضوعات التي عالجوها علاجاً قاعدياً أبعداً عن تحكيم الذوق واستشارة العقل والقلب ، كما كان هذا هو المنهج عند السابقين . والسبب في ذلك أن أكثر البلاغيين من طبقة صاحب الفتاح ، ومن بعده قل حظهم من الملكة البيانية الأصلية ، وغلبت عليهم روح الجدال والمنطق - وأدى هذا إلى أن يتعرضوا بأسلوبهم التقريري العلاج المسائل الحالية في الفن الأدبي ، وهم لم يعدوا أنفسهم إعداداً أدبياً بشحن ذهن ويستثير العواطف الإنسانية ، التي يتحرى الأدب والأدباء إثارتها ، وإن كان إعداداً جديلاً يبعد عن أهداف الأدب ومراميه . فإن استتبث فيه ، فضلاً عن غامضه ، وبعيداً من جليه ، قبل الوصول إلى مشكله . والعالم المبرز وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه ، استوفاه واستكمل - لها - وإذا كان البحث في (السرقات) بحثاً في صميم الأدب ، ودراسة لاخترعه القديم وما أخذه عنه المحدث ، فإن هذا البحث ينبغي أن يقوم على أساس من التاريخ ، فإن علينا أن ترجع إلى التاريخ ، لنسأله عن كل ظاهرة أدبية ، وعن كل عنصر من عناصر الجمال المكونة لهذا الفن • رين الذي ابتدعه متى وجدت تلك الظاهرة ؟ ومتى استحدث هذا العنصر ؟ من أولئك الأدباء الذين لا يحصى عددهم إلا الله ؟ وبعد الإجابة على تلك الأسئلة يكون من حق النقاد أن يسألوا عن الذين تداولوا هذا العمل فيها بعد ، وبغير المعرفة التاريخية التي تقوم على التحديد (١) الوساطة بين المثني وخصومه ومعرفة الزمن ، لا يتسنى تحقيق الغاية كاملة من دراسة السرقات دراسة مجدية . ولا تاريخ بغير مؤرخ ! ونحن في هذا المجال لانقصد مؤرخاً أياً كان ؛ بل إن المؤرخ الذي نعنيه مؤرخ بعيد المثال ، ولا يمكن أن يكون موجوداً على الوجه الذي تريد إلا في عصور مزدهرة بالحضارة ، وبين عقول زاخرة بالمعرفة ، امتازت ق البحث ، ونفرت من السطحية التي تنخدع بالمظاهر ، ولا تستطيع الغوص على العلل والأسرار . وكل ذلك بعيد غير مستطاع . والسبب في أسعد حصوله واليأس من تحقيقه ، أن ظواهر الخلق والابتداع كانت في عصور لا توصف في أكثر الأحيان بأنها من عصور النور والمعرفة ، ومثل تلك المصور يندر فيها وجود من تتطلع إليه تلك الدراسات من الباحثين احققتين . ثم إن أكثر تلك النواحي الإبداعية كانت فردية ، أي أن الذين خلقوها وأبدعوا كانوا أفراداً ، وأولئك الأفراد لم تكن لهم تلك القدرة على الإبداع بحكم تركيب الخلقة أو ترتيب البيئة أو الزمان أو المكان ، أو مقتضيات ذلك الزمان ، أو من خصائص هذا الجنس من الناس . فقد وجد القوة الخالقة والعبقرية المبتدعة ، على حين يوجد القادر على رصد إشمارات تلك القدرة ، أو تسجيل ما أبدعته من آثار • وقد توجد العقلية القادرة على رصد الظواهر وتتبعها في بيئة أو زمان لاعبقرية فيه ولا خلق ولا إبداع 4! إذا لم يكن في حكم المستحيل - . والأساس في كل دراسة أن توجد الظاهرة ، وأن يكتب لها شيء من الذبوع والانتشار ، وأن يكون في تلك الظاهرة ذلك من الصفات ما يجعلها جديرة بالبحث والدرس ، والرصد والتسجيل ، لا تعمل فيه ولا كد ولا مجاهدة . وفي سبيل الوصول إلى تلك الحلقات المتتابعة ، والمفقودة في الوقت ذاته ، الأساس كما قدمنا ينبغي أن يكون أساساً تاريخياً ، وهذا الأساس مع الحق غير ميسور لنا ، ولا شك أنه كان على هذه الدرجة من العسر ، ولا يمكن أن تكون سرقة ، إلا إذا كان هناك مسروق منه ، ولا يمكن أن ندعى أن هنالك تقليداً أو اتباعاً ، إلا إذا كان بين أيدينا على يميني بالمقدم أو الأصل ، حتى يعرف المتبوع من التابع ، والأصل من الفرع معرفة يقينية ، وعندئذ نستطيع أن نضع أيدينا على السرقة ، ولكن هذا الحكم الجازم غير مستطاع ، مادامت أسبابه غير مهيأة لنا ، مع الاعتراف بضرورة هذا البحث ، وعظم حدواء في الدراسات الأدبية والنقد الأسمى وهذا الاعتراف يقتضي شيئاً من التسامح ؛ إذ كان البحث في السرقات موضوعاً يتصل بالنقد الأدبي ، وهدف النقد التمييز بين القسم الأدبية الصحيح وفي هذا التمييز لا يمكن أن ندعي أن الأحكام التي تدلى بها أحكام لازمة أو ملزمة ، ولا يمكن أن ندعي شيوع الحكم أو التسليم به تسلمها مطلقاً ملزماً لجميع العقول " كما هو الشأن في العلوم التجريبية والعلوم الرياضية . في الحدود التي تمكن صاحبها من الاجتهاد ، وكان مبنياً أيضاً على الاطلاع الذي قد يكون واسع المدى ، وقد يكون محدوداً . لا يمكن أن يوصف بالإحاطة المستوعبة ، لأن

كثيراً من هذا الأدب أصابه الضياع لأسباب كثيرة ، ليس هذا مجال البحث فيها . إذا كنا قد فقدنا جانباً من الأسس المعتمدة في هذا المجال في تناول الجزئيات ؛ فإن أماننا من ناحية أخرى ثروة في الكليات ، وتكونت لدينا مجموعة من المعارف والآراء ، نستطيع بها أن ندون معالم هذه الدراسة المتشعبة ، وأن ننظمها من أهم النواحي التي ينظر إليها المحدثون في الدراسات الأدبية والنقد الأدبي . وقد كان في طول العكوف على دراسة النقد الأدبي ، وتتبع اتجاهاته ومناهجه المختلفة من عقل إلى عقل ، ومن عصر إلى عصر ، ما أعان على هذه الدراسة التي بحثت فيها عن مواطن الابتكار ومحالات التقليد ،تنظيم الفكرة ، ولم شعيها ، وجمع متفرقها ، في هذا الموضوع الذي نال من قدامي الباحثين من الجد والعناية ما لم يثل بعضه من عناية المعاصرين . والأمل بعد ذلك أن يعين الله على دراسة هذا الموضوع دراسة أخرى من الناحية التاريخية ، توقف على تطور الفكرة ،